العدد الثالث والعشرون
2006

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1374 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2006 مسيحي

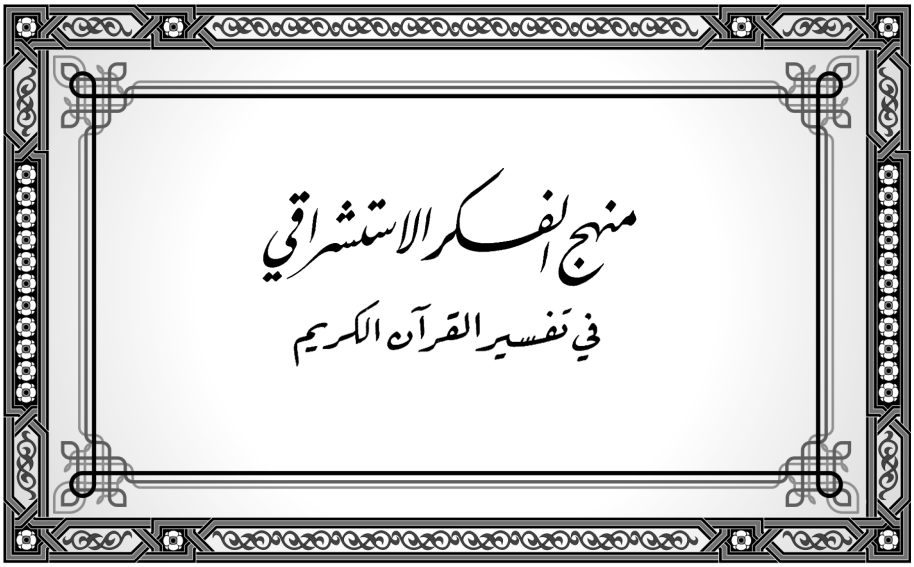

أ. د. محمّد الدّسوقي

خصائصه وآثاره:

إن الفكر الاستشراقي في غالبية جهوده يحمل منطلقات وأهدافاً متحيزة وأحكاماً مسبقة، تكشف عن أيديولوجية الغرب وطبيعته علاقته الفوقية بالآخر.

أما الجهود الاستشراقية الموضوعية والعلمية والحرة في منطلقاتها وأهدافها وأساليبها في البحث، فعلى الرغم من أن لها وجوداً وحضوراً، بيد أنه وجود محدود وحضور ضئيل التأثير في وعي الغرب للشرق، وبخاصة الشرق الإسلامي، وغالبية أصحاب هذه الجهود انتهى بهم المطاف إما إلى التعاطف مع الإسلام والمسلمين أو الانتماء العقلي للإسلام.

ويعير منهج الفكر الاستشراقي في تفسير النص القرآني عن أهم خصائص هذا الفكر ومنطلقاته في دراسة الإسلام وحضارته، ومن ثم كان الحديث عن هذا المنهج حديثاً عن دعائم الفكر الاستشراقي بوجه عام.

خصائص المنهج الاستشراقي في تفسير القرآن الكريم:

لقد كتب الاستشراق عن القرآن دراسات لا سبيل إلى حصرها، وهذه الدراسات مظهر من مظاهر الاهتمام البالغ بكتاب الله، وهو اهتمام ليس مبعثة معرفة الحقيقة، بل تلمس أوجه التحامل والهجوم على القرآن ووصفه بما لا يليق أن يوصف به.

إن الاستشراق ترجم القرآن إلى شتي اللغات الغربية، وهذه الترجمات في مجموعها أبعد ما تكون عن النص العربي للقرآن من جهة، ومزيلة بالتعليقات والتصورات الفاسدة من جهة أخرى، كما أن الاستشراق كتب عن كل ما يتعلق بالقرآن من حيث مصدره، محتواه، تاريخه، رسمه وتفسيره... إلخ.

هذا الدور الممتاز لمكة يمكن أن تقف على أثره واضحاً في كل أدوار حياة محمد وبتعبير إنساني إن محمداً نجح لأنه كان واحداً من المكيين [1].

ويقول احد المستشرقين الألمان: «إن الإسلام لم يظهر إلى الوجود عقيدة دينية بل محاولة للإصلاح الاجتماعي، تهدف إلى تغيير الأوضاع الفاسدة ـ وعلى الأخص ـ إزالة الفروق الصارخة بين الأغنياء الجشعين والفقراء المضطهدين لذلك نراه يفرض ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين وهو إنما يستخدم فكرة الحساب في اليوم الآخر وسيلة للضغط المعنوي وتأييد دعوته».

وما يقوله الاستشراق حول أثر البيئة في القرآن لون من التخرص والوهم الذي يمليه التعصب والجهل، فمن يتلو كتاب الله ـ دون أن يكون في تلاوته معصوب العقل بمعتقدات خاصة يسعى للانتصار لها ـ يوقن بأن هذا الكتاب ليس من وحي البيئة، وأنه من وحي الخالق وأن أية محاولة لنفي صفة الوحي الإلهي عنه لا يمكن أن تكون عملية أو مبرأة من الهوى.

---

(1) انظر الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية للدكتور سامي الحاج ط مركز دراسات الكاري ص320 مالطا.

إن الاستشراق فيما زعمه من تأثر القرآن بالبيئة المكية في حرها وأوضاعها الاجتماعية إنما يريد تأكيد دعواه بأن القرآن بشري المصدر؛ وأنه لهذا محلي المفاهيم والتعاليم، فلا يصح لغير البيئة التي انبثق عنها وانعكست قيمها وظروفها على ما اشتمل عليه من أحكام وتشريعات؛ وهذا يعني أن دعوة محمد ﷺ ليست عالمية، وأن هذا القرآن ليس مهيمناً على الكتب التي نزلت من قبله.

وقد ظن الاستشراق أن ما بين القرآن المكي والمدني من بعض التفاوت في الأسلوب والمضمون يؤكد زعمه بأثر البيئة ودورها في تلوين الأسلوب القرآني وهذا خطأ محض؛ لأن القرآن كله لا تفاوت بين مكية ومدنية، من حيث الإعجازي؛ فآياته البينات المحكمات كلها سواء في البلاغة، وكلها سواء في تحدى ومجابهة المشركين أن ياتوا بمثل هذا القرآن.

أما التفاوت بين المكي والمدني، فلا علاقة له بالبيئة؛ وإنما هو تفاوت الموضوعات ومقتضي الحال في التعبير عنها فما نزل في مكة غلب عليه تقرير أصول العقيدة وتحريرالإنسان من أوهام الشرك وجهالة الوثنية، في حين غلب على ما نزل بالمدينة تقرير التكاليف والتشريعات من عبادات، ومعاملات، وجهاد مسلح، فاختلف الأسلوب القرآني طوعاً لهذا، من حيث طول الآيات وقصرها ولكنه لم يختلف ـ كما أومأت آنفاً ـ من حيث الإعجاز.

ومن المستشرقين من ذهب إلى أن المصدر الرئيسي للقرآن الكريم هو شعر أمية بن أبي الصلت؛ للتشابه الكبير بينهما في الدعوة إلى الوحدانية، ووصف الآخرة، وقصص أنبياء العرب القدماء وزعم هذاالمستشرق إن المسلمين قد محوا شعر أمية وحرموا إنشاده ليستأثر القرآن بالجدة وليصبح النبي هو المنفرد بالوحي الإلهي[2].

(2) انظر المصدر السابق ص337، وأمية بن أبي الصلت شاعر مخضرم كان يخبر بأن نبياً قد اظل زمانه وكان يأمل أن يكون هذا النبي، فلما بعث محمد ﷺ كفر به حسداً، ولما سمع الرسول بعض شره قال: آمن لسانه وكفر قلبه (وانظر أمية بن أبي الصلت لبهجت عبد الغفار طريق الـ 75).

وهذا الرأي عار عن الصحة، فما عول النبي على شعر أمية في نظم القرآن، ما حارب المسلمون هذا الشعر؛ ليظل القرآن هو النموذج الفريد في موضوعه ولو كان الأمر كما رأى ذلك المستشرق، لأورد الرواة اتهام قريش للرسول ﷺ بأنه أخذ القرآن من شعر أمية، وهم كانوا أحرص من الاستشراق على التماس حجة ـ ولو باطلة ـ يتكئون عليها في نفي نبوة محمد ﷺ.

ويؤكد بطلان ذلك الرأي وأنه لا وزن له علمياً ما ذهب إليه الدكتور طه حسين في معرض رده على تلك الشبهة، أي شبهة تأثير شعر أمية في كتاب الله، لقد قال «إن هذا المستشرق أمثاله يشكون في صحة السيرة نفسها ويتجاوز بعضها الشك إلى الجحود، فلا يرون في السيرة مصدراً تاريخياً صحيحاً؛ وإنما هي ـ حسب قولهم ـ طائفة من الأخبار والأحاديث، تحتاج إلى التحقيق والبحث العلمي الدقيق وهم يقفون هذا الموقف من السيرة النبوية ويغلون فيه، ولكنهم يقفون من أمية وشعره موقف المتيقن المطمئن! مع أن أخبار أمية ليس أدنى إلى الصدق، ولا أبلغ في الصحة من أخبار السيرة، فما سر هذا الاطمئنان الغريب إلى نحو من الأخبار دون آخر؟ أيكون المستشرقون أنفسهم لم يبرأوا من هذا التعصب الذي يرمون به الباحثين من أصحاب الديانات[3].

إن التشكيك في أخبار السنة النبوية أو إنكارها وعدم الشك في شعر أمية يتلاءم مع منهج الاستشراق في الطعن في نبوة محمد ﷺ ونفي أن يكون القرآن قد نزل به الروح الأمين على قلب هذا النبي، وأي باحث منصف يقضي على الاستشراق وفقاً لذلك المنهج بأنه لا يبرأ من التعصب، ولا يعرف الامانة العلمية، وانه يخضع في آرائه لمواريثه الدينية وأهوائه الشخصية.

ويحاول مستشرق آخر أن يثبت أن مصدر القرآن ليس البيئة الصحراوية أو أشعار أمية وغيره، بل مصدره الحنفاء[4]، وهم جماعة، يعتقدون بوحدانية الله ولم يعبدوا الأصنام،ولكن هؤلاء الحنفاء كانوا قبل البعثة قلة، يعدون على

(3) انظر في الأدب الجاهلي ص143 ط القاهرة.

(4) انظر مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز ط دار القلم ص131 ـ الكويت.

الأصابع، وكانت عقيدتهم يلفها الغموض فيما يتعلق بوجود الله ووحدانيته وليس لديهم تصور واضح سليم للتشريعات والقوانين، إن كل ما يعرف عنهم أنهم كانوا ضائقين ذرعاً بما كان عليه قومهم من وثنية وجهالة، وضلالة، ولكن ما كانوا يستطيعون أن يقدموا لهم البديل الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن ثم لا يمكن أن تكون تصرفاتهم من المصادر الرئيسية للقرآن الكريم الذي يحتوي على تعاليم وأحكام واضحة جلية، لا لبس فيها ولا غموض، فدعوى هذا المستشرق لا تقل خللاً في الرأي أو فساداً في الاستنباط من دعاوى غيره الذين أجهدوا عقولهم؛ ليثبتوا بشرية القرآن وأنه صدى لواقع البيئة التي عاش فيها محمد ﷺ.

العوامل الخارجية:

أما العوامل الخارجية التي أمدت محمداً ـ فيما يزعم الاستشراق ـ بالأحكام والتعاليم التي وردت في القرآن، فهي الحكم، المواعظ، المبادئ، الأوامر، النواهي والقصص الواردة في كتب التوراة، الإنجيل والكتب السماوية الأخرى[5].

والاستشراق يبرهن على ما ذهب إليه ـ من تأثير العوامل الخارجية ـ بما بين القرآن والكتب السماوية السابقة من تشابه في القصص وبعض الأحكام، وكذلك باتصال محمد ﷺ ببعض الأحبار والرهبان سواء في رحلاته، أو مكة وضواحيها، أو يثرب والوحات القريبة منها، وتلقى عنهم ما جاء في تلك الكتب وانتقى منها ما شاء أن ينتقي، وصاغ من كل ذلك كتاباً، وقال بأنه أوحي إليه، ولم يوح إليه شيء.

والتشابه الذي يظن الاستشراق أنه دليل على أن مصدر القرآن الكريم هو الكتاب المقدس وغيره، يدل على العكس من هذا؛ إنه يشهد على القرآن وسائر الكتب السماوية مصدرها واحد، ولكنه يمتاز عنا بأنه معجزة ويحفظه الله من

(5) انظر الظاهرة الاستشراقية ج1 ص393.

التحريف والتبديل غير أنه الاستشراق ـ وفقاً للأهواء التي تسيطر عليه ـ يعكس القضية فبدلاً من أن يرى في هذا التماثيل وحدة المصدر يراه آية النقل والتأثر.

وعن علاقة محمد ﷺ ببعض الأحبار والرهبان وأخذه عنهم، لا يذكر التاريخ أنه ﷺ جلس من بعض هؤلاء مجلس المتعلم، أو أنه ـ قبل أن يوحي إليه ـ كان قد تردد على صومعة أو دير؛ لدراسة التعاليم اليهودية والنصرانية.

وإذا كان قد نقل أن محمداً ﷺ لقي، وهو غلام، أحد الرهبان[6] وكان ذلك في صحبة عمه أبي طالب فلم يثبت أن هذا الراهب شرح لمحمد ﷺ الكتاب المقدس أو لقنه بعض التعاليم الدينية، وكل ماتذكر الراويات عن هذا اللقاء أن الراهب حذر عم الغلام من اليهود؛ لأنهم إن عرفوا ما عرفه عن محمد ﷺ، سيقتلونه حسداً وحقداً، ويضاف إلى أن عمر محمد ﷺ وقت ذلك اللقاء لم يكن يتيح له أن يدرس الأديان وكتبها، ولم يتحدث إلا بعد نحو ثلاثين عاماً، بعد أن أوحى إليه.

وإذا كان محمد ﷺ أيضاً قد قام وهو شاب ببعض الرحلات التي كان يتاجر فيها بمال السيدة خديجة (رض)، فلم يثبت كذلك أنه لقي في هذه الرحلات أحداً من الذي يترهبون أو يلمون باليهودية والمسيحية، فضلاً عن أن الفكر المسيحي الذي كان منتشراً بين الغساسنة بسوريا لم يحرر هؤلاء العرب من مواريثهم الجاهلية، كما أنه لم يكن فكراً مستقيماً، وكان لدى بعض المستشرقين مجموعة من الخرافات المنفرة والطقوس الدينية المنحلة.

ويتضح مما أسلفته عن موقف الاستشراق من مصدر القرآن أن بين المستشرقين اختلافاً في الرأي حول هذا المصدر، وإن كانوا متفقين على أن الوحي الإلهي ليس مصدراً له؛ وهذا يعني أن هؤلاء المستشرقين لم يبدأوا دراستهم للقرآن دون الاعتقاد المسبق ببشريته وكذب محمد في دعوته، فراح كل منهم ينقب عن مصدر لهذا الكتاب فكان التناقض والاضطراب في تحديد هذا

(6) من المستشرقين من يرى أن لقاء محمد ﷺ براهب وهو غلام مجرد قصة من نسج الخيال (وانظر مدخل إلى القرآن ص134).

المصدر؛ مما يؤكد أنهم في دراستهم ناكبون عن المنهج العلمي، ومكبلون بمتقداتهم وأهوائهم.

ولو كان الاستشراق قد أخذ نفسه بالمنهج العلمي ـ كما يدعى ـ لاهتدى إلى أن القرآن ليس بشري المصدر، وأن محمداً ﷺ لم يأت به من عنده، ولم يتأثر بأحد (في تأليفه)، فلو كان القرآن كما يذهب المستشرقون، فكيف يمكن تفسير ما ورد من آيات، تعاتب الرسول على بعض ما اجتهد فيه؟ كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ * لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[7].

لقد عوتب الرسول في هاتين الآيتين عتاباً شديداً؛ لأنه قبل الفداء من أسرى بدر، وهو تصرف أقرب إلى طبعه الرحيم، ولعله فعل هذا أملاً في هداية قومه وتأليف خصمه، ولكن الله تبارك وتعالى نبهه إلى ما هو حق في ميزان الحكمة الإلهية.

كذلك عوتب الرسول ﷺ لما أذن للمنافقين الذين استأذنوه بالتخلف عن غزوة تبوك، قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[8].

والقرآن مع هذا اشتمل على طائفة من الإشارات العلمية والقضايا الغيبية التي تنفي أن يكون بشرياً، وقد شهد بذلك كل الذين درسوا تلك الإشارات دراسة موضوعية من المسلمين وغيرهم.

ثم.. كيف تفسر هذا الاختلاف الكبير بين القرآن والسنة، من حيث الأسلوب، وطريقة الأداء، ومنهج التعبير، ما دام المصدر واحداً وهو محمد ﷺ؟ وكيف يستطيع شخص واحد ـ مهما كان بارعاً صناعاً ـ أن ينطق بأسلوب معين، فيقول هذا قرآن من عند الله، ثم ينطق بكلام آخر، يختلف عنه في الأسلوب، فيقول: هذا حديث من كلامي؟

بل كيف يتسني التمييز والتفريق في عقل واحد بين نوعين من الكلام لكل

(7) سورة الأنفال، الآية: 67 و68.

(8) سورة التوبة، الآية: 43.

منهما طابعه المتميز وصياغته الخاصة؟ أليس الأسلوب معبراً عن شخصية صاحبه؟

ثم ما الذي كان يصد الرسول عن نسبة شرف القرآن العظيم إليه أو كان من إنشائه وتأليفه؟[9].

إن حديث الاستشراق عن مصدر القرآن لا يسنده دليل أو برهان، ولو كان لدى المستشرقين دليل صريح، لأدلوا به، ولو عرفوا شخصاً أو أشخاصاً كان لهم دورهم في مد محمد ﷺ بما يدعون، لأخبرونا به إنهم حاولوا أن يثبتوا بشرية القرآن، فأطلقوا لخيالهم العنان، فجال وصال في متاهات التخمين والأوهام وهو مع هذا لا يعدم وسيلة لإصغاء طابع العلمية والموضوعية على آرائه، بيد أن النقد الفاحص لها ينتهي ـ لا محالة ـ إلى إثبات بطلان تلك الآراء، وأنها مجرد خيالات وظنون، وأنها بعيدة كل البعد عن العلمية والموضوعية.

وإذا أردنا أن نتعرف على موقف الاستشراق من محتوى القرآن، فإن الذي لا ريب فيه أن موقفه من المصدر، سيقود في يسر إلى الوقوف على ذلك الموقف؛ لأن القول بأن محمداً صاغ تعاليم الكتاب المقدس واعراف الحياة الصحراوية يعني أن محتوى ما صاغه مزاج من هذه الأعراف وتلك التعاليم.

واجتزى هنا بالإشارة إلى علمين عن أعلام المستشرقين، وهما ـ فيما أرى ـ يعكسان ـ بوجه عام ـ نظرة الاستشراق حول محتوى القرآن أو تعاليمه، والحكم عليها.

هذان المستشرقان هما «بودلي» و«بروكلمان» والأول فرنسي والثاني ألماني، وقد عقد الأول في كتابه: «الرسول حياة محمد»[10] فصلاً، تحدث فيه

---

(9) انظر مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ج1 ص32 تونس.

(10) ترجم هذا الكتاب إلى العربية الدكتور عبد الحليم محمود وآخر.

عن أسس العقيدة الإسلامية وهو يعتمد في هذا على القرآن الكريم وقد استهل حديثه بمقدمة، توحي إلى القارئ بأن الكتاب يؤمن بسلامة تلك العقيدة؛ فهو ينفي عن الرسول الكذب والادعاء، والتنقل عن كتب السابقين ثم يعرج بعد ذلك بطريقة فنية إلى التصريح بأن دعوة محمد فيها من اليهودية والمسيحية والوثنية، وأن كل مبادئ الإسلام قد جاءت صدى للبيئة التي عاش فيها الرسول، فالزكاة في نظر «بودلي» غير واجبة، وقد فرضها محمد رأفة بالضعفاء الذين شاهدهم بعذبون في أودية مكة. وهذا خطأ محض والزكاة لم يفرضها محمد؛ وإنما فرضها الله، وهي ذات رسالة اجتماعية واقتصادية مهمة؛ إذ أنها تحقق التكافل بين أبناء الأمة وتسهم في توزيع الثروة على نحو ما، وتؤكد أن المال مال الله، ولا ينبغي أن يحوزه أحد بطريق محرم أو يمنع الحقوق المشروعة فيه.

ويتحدث «بودلي» عن الجنة والنار فيقول وما الجنة إلا تجسيم ما رآه محمد من نعيم خارج بلاد العرب في أثناء رحلاته.. وما الجحيم إلا تجسيم مشاق الصحراء المحرقة الماحلة التي تحيط بمكة؛ فهو ينعت الرسول بالتضليل والكذب، وأن الجنة والنار فكرة، ابتدعها محمد؛ ليحمل الناس على الإيمان بما يدعوهم إليه، وكأنه يريد أن يقول للمسلمين: إن اليوم الآخر خرافة، وإن المؤمنين به قوم مضللون.

ويقول «بودلي» عن العلاقة بين البيئة والتشريعات الإسلامية: «وقد املت الظروف المحلية كثيراً من القوانين الإسلامية؛ فيرجع تحريم لحم الخنزير إلى رداءة مراعي الخنازير وقذارتها في الشرق، فهي أحط من مثيلاتها في الغرب، كما أن العرب لا يعرفون كيف يطيبون لحومها، ولا يعرفون طريقة طهوها».

والواقع أنه لا رداءة المراعي، ولا الجهل بكيفية طهو لحوم الخنازير يعتبر السبب في تحريمها، بل يرجع ذلك التحريم إلى علل أخرى منها ما كشف عنه البحث العلمي الحديث من الخطر النفسي والجسمي على الإنسان إذا تناول لحوم هذه الحيوانات.

وكذلك يعلل تحريم الخمر إلي: «شغف العرب بنوع من المشروبات

الروحية المستخرجة من البلح، فلو كانت بلاد العرب بلاد نبيذ، فربما أدى ذلك إلى عدم التفكير في تحريم الخمر».

ولكن تحريم الخمر لا يرجع إلى كونها مستخرجة من بلح أو غيره؛ وإنما يرجع إلى تأثيرها الضار على العقل، ومن ثم كان مسكر حراماً، حماية لنعمة العقل من الفساد.

وأما «بروكلمان» فقد عقد في الجزء الأول من كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» فصلاً موجزاً عن تعاليم محمد، أعطى فيه صورة مشوهة لأركان الإسلام وهو في هذا لا ينفك مذكراً بأن هذه الأركان قد انبثق عنها فكر محمد ومعظمها قد استقاه من التوراة والإنجيل وعادات الأمم الخالية؛ فاليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب فكرة يهودية، نسج محمد حولها كثيراً من الأوهام والأكاذيب، والصلاة طقوس فارسية وتقبيل الحجر الأسود عبادة وثنية، ويقول عن قانون الجزاء في الإسلام: «أما القانون الجزائي في الإسلام، فقد ظل على مستوى يقرب من السذاجة وهو لا يمثل إلا تقدماً ضئيلاً بالنسبة إلى مفاهيم القوانين الوثنية القديمة».

والحقيقة أن اليوم الآخر ليس فكرة يهودية، وليست الصلاة طقوساً فارسية، وليس تقبيل الحجر الأسود عبادة وثنية، وقانون العقوبات في الإسلام ليس تقدماً ضئيلاً بالنسبة إلى القوانين الوثنية، فهو في مستوى أرفع من القوانين الحديثة التي وضعت في عصر الحضارة والتقدم الفكري.

وهكذا أرجع «بروكلمان» كما أرجع «بودلي» تعاليم القرآن إلى عادات الأمم القديمة ومعتقداتها وكذلك إلى البيئة التي نشأ فيها محمد وهذا كله افتراء، وتضليل، ويمثل جهلاً فاضحاً أو تشويهاً مقصوداً لحقائق لا يرتاب فيها، إلا كل من سيطر التعصب على عقله ووجدانه.

وبلغ التعصب ببعض المستشرقين أن ذهب إلى أن اشتمل القرآن على مبادئ عادلة وفضائل كاملة لا يعني أنه من عند الله[11]، ويوازن بين القرآن

(11) انظر المستشرقون والإسلام للأستاذ زكريا هاشم ص153 ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

والتوارة والإنجيل، ويرى أنهما أرقى من القرآن؛ فالتعاليم التي جاءا بها أشرف من تعاليمه، ومن ثم فليس وحياً إلهياً، وإنما هو تلفيق من شتى المصادر الدينية وغيرها.

وخاض الاستشراق في تاريخ القرآن، فشكك في الوسائل التي استخدمت لحفظه ومن ثم نفي أن يكون القرآن قد دون في عهد النبوة، وحكم على ما دونه أبو بكر (رض) بأنه يختلف في مضمونه وترتيبه عما كان يحتفظ به بعض الصحابة، وأن مصحف عثمان لم يلق قبولاً من كل المسلمين، وأنه في عهد عبد الملك بن مروان أدخلت على القرآن تغيرات وتعديلات.

لقد أدعى «بلاشير» أن فواتح السور بالحروف المقطعة ليست من القرآن، وأنها رموز لمجموعات الصحف التي كانت عند المسلمين الأولين قبل أن يوجد المصحف العثماني، فمثلاً حرف الميم كان رمزاً لصحف المغيرة... والهاء لصحف أبي هريرة... والصاد لصحف سعد بن أبي وقاص.. فهذه الحروف لدى «بلاشير» إشارات لملكية الصحف، وقد تركت في مواضعها سهواً، ثم ألحقها الزمن بالقرآن فصارت قرآناً[12].

وقد نفى «بلاشير» أن يكون ما نزل من القرآن في مكة قد دون في عهد الرسول ﷺ وأن بدء التدوين كان بعد الهجرة، ومع ذلك لم يكن هذا التدوين صحيحاً ودقيقاً فسقطت آيات كثيرة منه، فضلاً عن أن بعض ما كان مكتوباً عليه من العسب والرقاع قد ضاع[13].

وقال «جولد زيهر» في مستهل كتابه «مذاهب التفسير الإسلامي»: فلا يوجد كتاب تشريعي، اعترف به طائفة دينية اعترافاً عقائدياً على أنه نص منزل أو موحي به يقدم نصه في أقدم عصور تداوله في مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات كما نجد في النص القرآني.

وكما كانت آراء المستشرقين في مصدر القرآن غير علمية وغير موضوعية

---

(12) نظرات استشراقية للدكتور محمد غلاب ص12 ط القاهرة.

(13) انظر الظاهرة الاستشراقية ج1 ص375.

كانت آراؤهم في تاريخ القرآن كذلك فعلى أي أساس بنى «بلاشير» رأيه في أن فواتح السور بالحروف المقطعة ترمز إلى الصحف التي كانت عند الصحابة؟ إن هذا المستشرق ذهب به الخيال والافتراض مذهباً غريباً وبعيداً عن الحق، وهو فيما ذهب إليه لا يملك دليلاً علمياً ولا يستطيع أن يبرهن على تلك النظرية الفاسدة في تفسير الحروف المقطعة التي بدئت بها بعض السور، وكانت من شواهد الإعجاز القرآني.

وأما رأيه في تدوين القرآن فهو يحاول به أن يثبت أن القرآن الذي يتلوه المسلمون الآن قد ضاع منه الكثير؛ لأن ما نزل من القرآن في الفترة المكية يبلغ تقريبا 19/ 30 من القرآن كله فإذا تسرب الشك إلى أن القرآن في مكة لم يدون فهذا يعني أن ما بأيدي المسلمين اليوم ليس هو القرآن كله.

وهذا الرأي لا يقوم على دليل، ولا يسنده أثر تاريخي وهو مجرد فرض لا يمكن إثباته ولا البرهنة على صحته فضلاً عن أن كل المصادر التي أرخت للفترة المكية أشارت إلى كتاب الوحي الذين قاموا بأقدس مهمة في التاريخ وهي تدوين آخر وحي الله إلى خلقه ولكن الاستشراق ـ وهذا دأبه ـ يحلو أن له يفتعل الشكوك، ويختلف الظنون فيما هو مجمع عليه.

و «جولد زيهر» في حكمه في اضطراب النص القرآني يلقي القول على عواهنه، فلم يقم هذا الحكم على فكر سليم وبحث علمي دقيق، وإنما قام على الرغبة في تشويه الكتاب الذي أحكمت آياته.

إن هذا المستشرق معروف بأحقاده، وتعصبه وممالأته للصهيونية وهو في كل آرائه يحاول أن ينفث سمومه، وأن يقدم الإسلام ونبيه وكتابه الخالد والتراث العلمي الإسلامي في صورة منفرة تسئ إلى هذا الدين والمؤمنين به ومن ثم كانت دراساته عن الإسلام والمسلمين كلها سموماً وافتراءات وأحقاداً وتخرصات.

والاستشراق لا يكتفي بالحكم على النص القرآني بضياع قدر منه، واضطراب صياغته، بل يتهم الصحابة (رض) بأنهم أضافوا إلى هذا النص ما ليس منه، وأن الأهواء السياسية لعبت دورها في تغيير بعض الآيات أو حذفها،

فالمستشرق الفرنسي «كازانوفا» يذهب في كتابه «محمد ونهاية العالم»[14] إلى أن هناك آيتين يشك في صحة نسبتهما إلى الوحي الإلهي يرجح أن يكون أبو بكر هو الذي أضافهما على أثر موت النبي فأقره المسلمون على ذلك وهما قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[15] وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[16].

وهذا المستشرق بما قاله يعبر عن جهله بالسيرة النبوية وبأسباب النزول وبفقه سياق الآيات، ولأنه يريد أن يثير شكاً يتلمس مطعناً يظن بلوغ الغاية من زعزعة ثقة المسلمين بصحة كتاب الله وذلك أن الآية الأولى استشهد بها أبو بكر (رض) حينما رأى الناس قد عصف بهم الحزن بعد وفاة النبي ﷺ ومنهم من لم يصدق أنه قد مات، وكان لهذا أثره؛ فالنفوس الحزينة قد زايلها ما سيطر عليها واستبد بها من آلام والآية قد نزلت بسبب محنة المسلمين يوم أحد، وما أشيع بأن الرسول قد قتل، واختلف المسلمون أيواصلون القتال أم لا؟ فأنزل الله الآية؛ لتبين أن محمداً ﷺ كغيره من الأنبياء سيموت فإذا مات تخليتم عما جاءكم به ودعاكم إليه ومن فعل ذلك فإن عاقبة أمره خسران.

ونزلت الآية الثانية بالمدينة وتعني إبلاغ النبي بأنه سيموت كما تموت كل الخلائق فكل نفس ذائقة الموت.

وإذا كان الأمر كما ذهب إليه ذلك المستشرق أن أبا بكر اخترع الآيتين فكيف يسكت المسلمون على ذلك ويوافقونه على هذا التزوير المتعمد مهما يكن الباعث عليه وهم أشد حرصاً على كتاب الله؟

إن الاستشراق تكلم عن تاريخ القرآن كلاماً، يدور كله في فلك اتهام المسلمين في القرن الأول بأنهم حذفوا وغيروا وأضافوا ولكي يلبسوا هذا الاتهام

(14) انظر المصدر السابق ص377.
(15) سورة آل عمران، الآية: 144.
(16) سورة الزمر، الآية: 30 و31.

ثوب الحقيقة العلمية عولوا على بعض الآثار الضعيفة والروايات الموضوعية ولم يرجعوا إلى المصادر الأصلية والأقوال الصحيحة.

والمستشرقون الذين لا يجيدون النطق بالعربية ـ مهما امتدت دراساتهم وقراءتهم في تراثها ـ تطاولوا على لغة القرآن الكريم التي هي أرفع بيان في العربية فأدعى بعضهم بأن هذا الكتاب غير فصيح وغير بليغ وأن به أغلاطاً نحوية، وتاريخية ومتناقضات لفظية[17].

ويسلم بعض المستشرقين بفصاحة القرآن ولكن ـ مع هذا ـ يذهب إلى إنه لا يلزم من فصاحة كتاب من الكتب أن يكون من عند الله ويضرب مثلاً لذلك بوجود بعض الآثار الأدبية العالمية كالإلياذة والأوديسة[18] لهوميروس.

إن حديث الاستشراق عن لغة القرآن أدل برهان على الجهل وسوء النية، وخبث الهدف فالأعجمي الذي لا يقدر أن يبين عما في نفسه بالعربية هو الذي يقضي على القرآن بأنه ليس فصيحاً وأن به أغلاطاً نحوية! إن هذا الحكم شهادة للقرآن بأنه في الذروة من الفصاحة والبيان كما يقول الشاعر

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

إن عجز العرب من الإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن ـ مع حرصهم الشديد على ذلك ـ لأوضح برهان على تفرد القرآن في العربية بإعجازه التشريعي والعلمي فلا سبيل لوضعه منزلة أي كتاب بشري أو تشبيه به مهما تكن فصاحته وبلاغته، ولكن الاستشراق ـ من منطلق نظرته إلى القرآن وهو أنه ليس وحياً من عند الله ـ يلجأ إلى كل ما يسوغ له القول ببشريته واضطراب آياته والعبث بتدوينه، وتدخل الأهواء والمصالح الخاصة في الإضافة إليه، والحذف منه ومحاولة النيل من مستواه البلاغي واللغوي وهذا يؤكد أن دراسات الاستشراق عن القرآن تفتقر إلى الموضوعية والأمانة العلمية وأنها لا تتغيا سوى التشويه ونفي أن يكون هذا الكتاب آخر وحي الله إلى الناس، وأن تكون له الهيمنة على

(17) انظر المستشرقون والإسلام ص118.

(18) المصدر السابق ص144.

كل الكتب التي نزلت من قبله وذلك حرصاً منه على منع تأثر القرآن وانتشاره ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[19].

ويتضح مما سبق أن خصائص المنهج الاستشراقي في تفسير النص القرآني مزاج من الاعتقاد ببشرية هذا النص، وأن مصادر النص ترجع إلى عوامل داخلية روح هذه الحضارة، وأن دعوته إلى ما يسمى بحضارة البحر المتوسط ليست إلا مدخلاً لكي يكون لفرنسا سلطانها الثقافي بين العرب.

آثار المنهج الاستشراقي في التفسير القرآني:

إن المنهج الاستشراقي في تفسير النص القرآني آثاراً خطيرة على المستويين العالمي والإسلامي.

أولاً ـ على المستوى العالمي:

زرع الخوف من الإسلام في نفوس غير المسلمين وبخاصة أهل الكتاب مما كان سبباً في توتر العلاقات بين المسلمين واليهود والنصارى، ويعبر عن هذا الخوف أجهزة الإعلام في كل يوم وتضاعف هذا التعبير بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وأحداث الحادي عشر من سبتمبر وأطلق على الإسلام كلمة الخطر الأخضر ومن ثم يلاحظ المتبع لمسارات السياسة الدولية المعاصرة أنها تتخذ من قضايا المسلمين وحقوقهم مواقف مجافية للحق والإنصاف، والفكر الاستشراقي هو المسؤول عن هذا المواقف، لأنه هو الذي قدم الإسلام والمسلمين للعالم غير الإسلامي فأستقر في وجدان هذا العالم النفور من الإسلام والاستهانة بالمسلمين منذ عدة قرون، وزاد ضعف العالم الإسلامي من تصديق كل ما قاله الاستشراق وهذا يفسر الخوف الغربي من الصحوة الإسلامية، لأنها تعني عودة القوة للمسلمين وفي هذا تهديد لمصالح الغرب وأطماعه العدوانية في الأقطار الإسلامية.

---

(19) سورة الأنفال، الآية: 30.

وبلغ الموقف الغربي المضاد للإسلام والمسلمين ذروته في تلك المحاولة السيئة التي تسعى لتشويه القرآن، وصرف المسلمين عنه وتجلت هذه المحاولة فيما يسمى بالفرقان الحق، وهو كتاب مزج فيه الاستشراق بين آيات من القرآن ونصوص من التوراة والإنجيل بحجة داحضة تريد التقريب بين الأديان الثلاثة وقد وزع هذا الكتاب في بعض إمارات دول الخليج ولا استبعد توزيعه بوسائل شيطانية في كثير من الدول الإسلامية.

والخلاصة أن منهج الاستشراق في دراسة القرآن والسنة وما قدمه الفكر الإسلامي في مختلف مجالات البحث العلمي كان من وراء كل المواقف المعادية للإسلام والمسلمين فلا غرو أن تمالأ الغربيون جميعاً على قهر هذا الدين في عقر داره، واقتسموا أقطاره وسعوا لاحتلاله عقلياً وثقافيا بعد أن احتلوه عسكرياً حتى يزحزحوه عن أصالته وأسباب قوته، فيظل تابعاً لهم وإن كان من الناحية الشكلية متمتعاً بالاستقلال والحرية.

ثانياً ـ على المستوى الإسلامي:

كان من أهم آثار المنهج الاستشراقي في دراسة الإسلام ومعجزته الخالدة إحداث التمزق والصراع المذهبي بين المفكرين والمثقفين في العالم الإسلامي فهؤلاء المفكرون لا يتفقون على كلمة سواء في قضايا أمتهم المصيرية، فمنهم من أولع بالفكر الاستشراقي والثقافة الغربية فدعا إليهما ونأوأ سوهما منا ومنهم من رأى في هذا الثقافة وذلك الفكر خطراً على الذاتية الإسلامية فعاداهما ومن ثم شهد هذا العالم منذ أكثر من نصف قرن اختلافات كثيرة استهلكت طاقات أهل الرأي فيه دون جدوى وما زالت هذه الاختلافات حتى الآن تشغل الأمة بما لا يعود عليها بطائل في دينها ودنياها[20].

إن ما يعاني منه الفكر الإسلامي المعاصر من بلبلة ومتناقضات ترجع بعض أسبابه ـ إن لم تكن كلها ـ إلى ما قدمه الفكر الاستشراقي في مفاهيم

(20) انظر صور استشراقية ص30.

خاطئة، وأفكار مزورة عن الإسلام وتاريخه، لأن هذه الأفكار والمفاهيم راجت بيم المثقفين وأشباه المتعلمين في المجتمع الإسلامي بعد أن خضع للاحتلال الغربي وأصبحت للفكر الاستشراقي الهيمنة والتوجيه للسياسة التربوية والاجتماعية في هذا المجتمع فتمزق ثقافياً في ظل الثنائية التعليمية، وما تمخض عنها من ظهور التيارات المتصارعة التي يدعى أتباع كل منها أنهم على الحق دون سواهم، فلا غرو أن اختلفت صفوة المفكرين والباحثين في الأمة الإسلامية حول قضية لم يختلف المسلمون فيها من قبل وهي أن الإسلام دين ودولة عقيدة وشريعة ،وأنه الحل الأمثل لكل مشكلات التخلف والضعف والتفرق والعصبية والمذهبية والعرقية.

وبعد فإن هذه الآثار بنوعيها تمثل تحدياً للإسلام من حيث عمومه وخلوده وصلاحيته الدائمة للتطبيق، وهي من ثم تفرض على أهل الذكر في الأمة أن يخططوا لدراسات علمية موضوعية تخاطب غير المسلمين بلغاتهم لترد على الافتراءات والأباطيل، ولتقدم الصورة الصحيحة للإسلام وحضارته الإنسانية، هذا من جهة ومن جهة أخرى تقدم للمسلمين الدراسات العلمية التي تتسم بالوسطية والاعتدال وتجادل بالتي هي أحسن لتوضح تشريعات الإسلام وتؤكد أنها تلائم الفطرة الإنسانية وأن اختلاف الآراء حولها ليس لها مسوغ شرعي أو عقلي وأن الأولى أن تلتقي كل النظريات والأفكار حول وجوب تطبيق الشريعة الغراء، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.